



يعيش المواطن السوري العالق تحت وطأة نظام الأسد، هذه الأيام، أزمة خانقة في تأمين مادة الغاز، يصطف أمام المراكز ومعتمدي التوزيع يومياً ساعات طويلة، وقد يفلح في نهاية المطاف في تأمين أسطوانة ليطبخ عليها أو لا يفلح غالباً.

فترسربات النظام تقول إن "الإرهابيين" في إدلب نجحوا في استجرار الغاز إلى مناطقهم. وهكذا انهارت خدمة تأمين الغاز في الدولة كلها، لأن بضعة إرهابيين - مفترضين - نجحوا في نقل بعض أسطوانات من الغاز إلى إدلب التي يرثاح نظام الأسد من خدمات مواطنيها كافة منذ 8 سنوات، موكلاً أمرها "للإرهابيين".

وأسأصلق هنا رواية النظام عن مؤامرة الإرهابيين الأوغاد، ولن أذكر أنني ومنذ وعيت أعلم جيداً أن المواطن يعيش أزمة في تأمين الغاز مع نهاية كل سنة وبدايتها.

قبل ذلك ومن دون أية مبررات، عاش المواطن أزمة خانقة في تأمين مادة الخبز، وكما هي الحال مع الغاز، راح المواطن يصطف يومياً لساعات طويلة أمام الأفران ليحصل على ما يسد به رمق عائلته من خبز بائس، وفي النهاية يحصل على ما يراه النظام كافياً ليشبع لا ما تراه أمعاء أطفاله مشبعاً، سبب تلك الأزمة حينها -ودائماً بحسب رواية النظام- كان أن مجموعة من التجار الملائين باعوا الطحين المخصص للخبز في السوق السوداء. وهكذا -مرة أخرى- انهارت صناعة الخبز في الدولة كلها بسبب بضعة تجار باعوا بضعة أكياس من الطحين.

وقبل الأزمتين، جادت السماء ببعض المطر في العاصمة، ولكن المطر كان أعلى من المعدل بقليل، فغرقت العاصمة. لم تقع المسؤولية هذه المرة على الإرهابيين، ولله الحمد، بل على السماء التي أمطرت أكثر مما ينبغي.

و قبلها انهارت شبكة الكهرباء، لأن المواطن شعر بالحر فشغّل المراوح والمكيفات، وستنهار ثانية لأن المواطن - عديم المسؤولية - سيستخدم الكهرباء مجدداً في التدفئة، بعد أن تنهار المحروقات لأن المواطن - وبشكل مفاجئ للنظام - يستخدم المازوت للتدفئة شتاء.

وهكذا يعيش المواطن حياته كلها محاصراً بالنقص والفاقة والأزمات، ليصبح العيش من دونها ضرباً من الخيال، إنها تدخل في نسيج حياته وتركيب هويته وتفكيره.

لقد استغرقتُ أشهراً طويلاً حتى تقبّلتُ كيف أنه في كل صنابير تركيا يوجد ماء، في أية لحظة تفتح الصنبور سيكون فيه ماء، في أية لحظة تشغّل مفتاح الضوء ستكون هناك كهرباء، ولم أستوعب كيف يعيش التركي الجار - الذي خرج قبل أقل من عشرين سنة تقريباً من انهيار اقتصادي شامل - من دون وقوف في طوابير ليحصل على أسطوانة غاز، الغاز يصل إلى بيته بالحنفية! وكأن ذلك من أجواء ألف ليلة وليلة، المؤكد أن الإرهابيين الملائين لن يسرقوه إلى إدلب.

ويكفيه أن يقف بعض دوّاقين على الموقف ليحصل على سيارة أجرة أو باص عام للنقل، ويمكنه عبر تطبيق على الموبايل أن يعرف متى سيصل الباص إلى الموقف اليوم وغداً وبعد سنة، وسيصل من دون أن يؤخره افتتاح المدارس أو دوام الموظفين أو مؤامرة كونية! يمكنه أن يشتري الخبز في أية لحظة وعلى مدار 24 ساعة طازجاً ساخناً من دون أن يسرقه التجار الملائين. شوارعه لا تفرق في مياه الأمطار وهي أضعاف ما تشهده شوارع دمشق. محطات الوقود لديه فيها مازوت دائماً، على الرغم من أن دولته لا تنتج النفط أصلاً!

أية حياة مملة تلك التي يعيشها التركي من دون أن يقضي ساعات طويلة كل يوم في الانتظار أمام الفرن أو محطة الوقود أو موزع الغاز أو موقف الباص أو المؤسسة الاستهلاكية؟

ثم كيف حق الأتراك هذا كله وهم ليسوا دولة مقاومة أو ممانعة؟ كيف حققوه وليس لديهم قيادة قُطرية أو قومية أو جبهة وطنية تقدمية أو خطط خمسية؟ كيف يمكن للدول أن تنجح هكذا؟

ذات مرة، قال لي رجل حكيم: إن العكس هو الصحيح، وإن المهمة الحقيقية لكل هذه "المؤسسات" هي محاصرة المواطن والتضييق عليه، ومحاربة أخطر الأعداء؛ الوفرة.

الوفرة خطر قاتل، عدو داهم، من شأنه تفكك الأنظمة الممانعة المقاومة وفضح عريها، ولذلك يتوجب عليها دائماً خلق الأزمات والتفنن فيها، لحرق عمر المواطن وحياته وأحلامه وأماله، لا يجب أن يرتاح، لا يجب أن يلتفت أنفاسه، لا توجد استراحة بين أزمتين. فالويل كل الويل لو ارتاح هذا البائس وشعر ببعض الأمان الاقتصادي أو الخدمي، فذلك منذر بزوال الدولة كلها، لأنه سيتمكن حينها من التفكير في واقعه ومؤسساته.

وهكذا جهد الأب والابن من بعده في بناء دولة كاملة وفق "اقتصاد الشعراة"، ليست شعراً معاوياً هنا، بل الشعراً الأسدية، التي تسمح للمواطن بالاستمرار في الحياة تفضلاً ومكرمة يمكن في أية لحظة أن تتوقف بفعل مؤامرة وأعداء يتربّصون بنا

منذ ولدنا، بنا وحدنا من دون بقية خلق الله. الشعراة التي يكفي أن تنقص منها بضعة أكياس طحين أو أسطوانات غاز أو ليترات مازوت أو ماء مطر حتى تنقطع وتنهار الدولة ويشعر المواطن أنه في مهب الريح!

لكن الأمر الذي لم يستوعبه هذا النظام، على الرغم من كل الدهاء والقمع والمنع والسنوات الطويلة من التعامل وفق اقتصاد الشعراة الأسدية، هو كيف تمكّن هذا المواطن اللعين من التقاط أنفاسه ليقول: لا! متى وجد الوقت لذلك؟ كيف فعلها وأشعل ثورة؟

هذا ما لم يجد نظام الأسد له جواباً، وهذا – تحديداً – ما يجعله يُمعناليوم في خنق من تبقى من المواطنين أكثر، عبر أزمات متلاحقة، خوفاً من "لا" أخرى، قادمة لا محالة.

المصادر:

العربي الجديد